رحلة الحج لشاعر اندلسي ضرير في القرن الثامن الهجري وتراثه الادبي

■ بقلم الاستاذ الدكتور سامي الصقار

المقصود بالشاعر، هو ابو عبد الله محمد بن احمد بن علي بن جابر الاندلسي، المري الهواري المالكي الضرير، ويلقب بشمس الدين، المولود سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م، والمتوفى سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م، (وقد يطلق عليه اسم ابن جابر).

كان شاعراً أعمى، وعالماً بالعربية، وهو من أهل مدينة «المرية» في الاندلس، توجه اولاً الى الديار المصرية بصحبة مواطن أندلسي آخر، هو احمد بن يوسف الغرناطي الرعيني، فكان الشاعر ابو عبد الله يؤلف وينظم الشعر، والرعيني يكتب، وقد اشتهرا بين الناس بلقب «الاعمى والبصير».

وبعد قضاء بعض المدة للدراسة في مصر، توجها الى الشام، فدخلا دمشق وأقاما فيها، واستقرا فيها، واتخذا لهما سكناً في قرية «البيرة» قرب «سمسياط» وعند ذلك تزوج الشاعر، مما ادى الى افتراق الزميلين، ولكن الرعيني توفاه الله، فرثاه صاحبه وقد توفي بعده بسنة في «البيرة» آنفة الذكر، بعد ان ترك تراثاً قيماً، اذ هو الذي اخترع اول «بديعية» في الادب العربي، حسب رأي البعض، ولكن هناك من يقول: انه اتبع اسلوب الشاعر العراقي صفي الدين الحلي، ولذا سمى

بديعيته «الحلة السرا في مدح خير الورى» والحلة هي مدينة الشاعر الحلي.

هذا وقد عرفت تلك القصيدة بعنوان آخر، هو: «بديعية العميان» وهي مطبوعة، وقد شرحها هو نفسه، لكن هذا الشرح لا يزال مخطوطاً.

ومن مؤلفاته «شرح ألفية ابن مالك» وهو مخطوط في مكتبة «عبيد» بدمشق، ونسخة أخرى منه في المكتبة الظاهرية بدمشق ايضاً ونسخة في مكتبة «شيستر بيتي» في ايرلندا كما ان له شرح ألفية ابن معطي، وتقع في ثمانية أجزاء، وقصيدة «العين في مدح سيد الكونين»، وهي مخطوط ايضاً، كما ان له ايضاً «نظم فصيح ثعلب» الذي تم نشره، هذا وقد نظم كتاب «كفاية المتحفظ» وكتاب «غاية المرام في تثليث الكلام» وهو مخطوط، ومثله كتابه المسمى «المنحة في اختصار المُلحة» والمقصود هو «مُلحة الاعراب» للحريري، وله ايضاً عدة مؤلفات في اللغة والنحو والبلاغة والعروض، وله قصائد عدة منها «المقصد الصالح في مدح الملك الصالح» وهي مخطوطة وكذلك له قصيدة ميمية في حرفي «الظاء والضاد» وهي لا تزال مخطوطة ايضاً.

والحقيقة ان ابا عبد الله هو شاعر مطبوع، وله نظم وافر لا يزال أغلبه مخطوطاً، وأبرز قصائده كانت من وحي رحلته الحجازية، ويبدو ان تلك الرحلة، كانت قبل رحلته التي انتهت بوفاته في الشام، وهي من البحر الطويل، وقد ذكر فيها منازل الحج، والمواقيت من بدايتها في حلب، ضمن قافلة كبيرة حتى عودته اليها، ويؤكد بعض المعلقين، انه استهدف من وراء تلك القصائد، استفزاز همم المسلمين الى أداء فريضة الحج، وزيارة المسجد النبوي، الى جانب مدح الرسول ﷺ، ويعدها البعض انها من ادب الرحلات، والأدب الجغرافي، ويصفونها في عداد رحلات ابن جبير وابن بطوطة، كما يعتبرونها من وسائل اعادة اكتشاف طريق الحج الحلبي.

وقد نظم ايضاً قصيدة تقع في (١٨) بيتاً في مدح الرسول ﷺ موجودة نسخة منها مؤرخة بسنة ٧٧٣هـ، وتوجد نسخة أخرى منها في مكتبة «اسكوريال» بمدريد، مطلعها:

هناؤكم أهل طيبة قد حقّا

فبالقرب من خير الورى حزتم سبقا

اما بالنسبة لحجته فإن رحلته هذه الى مكة المكرمة، التي استغرقت ثلاثة أشهر وثمانية أيام، اذ بدأها بآخر يوم من شعبان، الى السابع من ذي الحجة، يوم

وصوله الى مكة المكرمة، واستغرقت رحلة العودة مثل تلك المدة، وهكذا فإن ما قضاه في السفر، يزيد على سبعة أشهر، عدا ايام الاقامة في مكة والمشاعر المقدسة، وايام الزيارة للمسجد النبوي الشريف.

وقد ورد في قصيدته التي نظمها في هذه الرحلة، ذكر (٧٠) موضعاً مر بها، ويقول من اطلع على تلك القصيدة: ان الشاعر لم يذكر فيها اي شيء عن مخاطر الأمن، او العراقيل الناشئة عن العدوان، مما يدل على قدرة الحكام في دولة المماليك من تأمين الأمن، خاصة بعد زوال الخطر الصليبي الذي كان يهدد المواضع التي يمر بها الطريق.

ولقد حاولت من جانبي الوصول الى تلك القصيدة، فلم أوفق، اذ لم يرد منها شيء في المصادر المتيسرة التي ترجمت لهذا الشاعر، وانما اقتصرت على الاشارة اليها في النبذة التي نشرتها مجلة «العربي» عن هذا الشاعر.

والجدير بالذكر ان هذا الشاعر، بعد اقامته الطويلة في منطقة حلب، «والظاهر انها قد سبقت رحلة الحج التي تحدثنا عنها والتي انتهت بوفاته رحمه الله» وقد عاد الى «البيرة» وفيها توفي، وينبغي التنبيه الى ان «البيرة» هذه هي ليست المدينة الاندلسية المعروفة، وانما هي قرب سمسياط من الثغور الشامية التي تواجه ثغور «الدولة البيزنطية».

❖ كشف المصادر:

١- مفتاح السعادة لطاش كوبري زادة ج١/١٥٦ .

٢- بغية الوعاة للسيوطي ص١٤ .

٣- نفح الطيب للمقري، ج٢/٦٦٨ و ج٤/٧٩٨ .

٤- اعلام النبلاء للذهبي، ج٥/٧٧ .

٥- الدرر الكامنة لابن حجر، ٣/٣٦١ .

٦- نكت الهميان للصفدي، ص٢٤٤ .

٧- كشف الظنون لحاجي خليفة ص١٥٢-١٥٥ .

٨- بروكلمان، ج٢/١٤ و ٣١٠ .

٩- مجلة الفتح، طبعة جاد الحق، لشهر ربيع الثاني ١٣٤٧هـ.

١٠- الاعلام للزركلي ج٥/٣٢٨ .

١١- مجلة العربي الكويتية، العدد ٥٨٠، آذار سنة ٢٠٠٧ (تعليق من حلب بقلم د. محمد جمال طحان).

